مقال

أزمة الأدب العربي المعاصر

رؤية من خلال علاقة الأدب بالمعتقد «الأيديولوجيا»

إن الأدب و«الأيديولوجيا»(١)، يشكلان قضية تبدو معقدة، لأن النظرة السطحية تتوهم تنافراً أو تضاداً بينهما، انطلاقاً من مفهوم سائد، يرى أن الأدب أو الفن بشكل عام حرية، والأيديولوجيا التزام (وإلزام)، والعلاقة بين الحرية والالتزام علاقة بين قطبين متنافرين.. والواقع أن هذه النظرة وقعت في خطأ التجزئة، وعدم الإدراك الحقيقي لطبيعة الأدب والفن، وخرجت عن صميم التجربة الحية، والممارسة التاريخية..

فالأيديولوجيا لا تتعارض مع الإبداع، تلك حقيقة مؤكدة ومقررة من قديم، نراها في تراث أرسطو حينما تحدث عن الشعر والمسرح، وتبنتها مدارس الأدب والفن على مدار التاريخ، وحمل لواءها كبار الكتاب، ومن العسير أن نجد أدبا لا يعبر عن أيديولوجية ما، أو تصور أو رؤية ما، ينظر من خلالها الأديب إلى الوجود من حوله.. حتى أصحاب مدرسة «الفن الفن» يصدرون عن فكر معين، وقناعة خاصة، حين يؤلفون شعراً أو مسرحاً أو قصصا.. فالأدب - كما هو بدهي وثابت ومعروف - يشتمل عنصرين أساسيين ملتحمين تلاحما عضويا، هما: «الفكرة» و«الشكل»..

□□□

بقلم:
طارق عبدالفتاح شديد

ولذا، فالأدب تربطه بالأيديولوجيا روابط متينة وعرى وثيقة، وهذه العلاقة بينهما تبدأ من «اللغة»، التي تشكل سمة من سمات الوجود الإنساني.. «فالحياة الإنسانية حياة لغوية، ففي كونها اقتصادية، لا تستطيع أن تكون كذلك إلا باللغة، وفي كونها أيدلوجية لا يمكن أن تكون كذلك إلا في اللغة..»(٢). ومن هذا الإدراك للسمة اللغوية للوجود الإنساني يتوثق أيضاً إدراك أيديولوجية، لأن «اللغة شرط كينونة الأيديولوجيا الأول وشرط تحققها فلا أيدلوجيا بدون لغة»(٣). ومن ناحية أخرى «الأدب فعل لغوي، وحين ندرك هذه الحقيقة البسيطة، ونبدأ في استقراء منطوياتها ندرك، بشكل حاسم أن الأدب بما أنه - على وجه الخصوص - فعل لغوي، فهو في الآن نفسه فعل أيديولوجي»(٤).

وبالإضافة إلى رابط اللغة بين الأدب والأيديولوجيا، هناك (الأديب المبدع) نفسه، بوصفه كائنا اجتماعياً، له مبادئه وقيمه ومثله وأخلاقه، بل له تكوينه ووعيه الأيديولوجي، وانطلاقا من هذه العوامل المؤثرة ينبثق الإبداع المحمل بقيم ومعالم أيديولوجيته تلك..

ومن خلا المفهوم المبسيط لمصطلح «الأيديولوجيا» حيث يطلق على «المخطط النظري للأفكار والمعتقدات التي يتكون منها المركب الفكري الذي يحيط بأبناء المجتمع الواحد، إحاطة تأخذهم من جميع جنبات حياتهم، من سياسة إلى اقتصاد إلى أدب إلى فن إلى غير ذلك من أوضاع الحياة، والذي يحدد ماينبغي أن تكون عليه صورة هذ المجتمع، من حيث الأهداف والوسائل المختلفة التي توصل إلى تلك الأهداف»(٥).. من خلال هذا المفهوم يمكن القول بأن جميع الأعمال الأدبية تعبر عن قيم أيديولوجية وتخدم أهدافا أيديولوجية واضحة أو خفية، بصورة أو بأخرى، «فالكوميديا الإلهية (لدانتي) مثلا، أو الفردوس المفقود (لجون ملتون)، تخدم أهدافا دينية مباشرة، على عكس رواية توم جونز (لفيلدنج)، أو رواية دافيد كوبر فيلد (لديكنز)، أو قصيدة الأرض الخراب التي ألفها (ت. س. اليوت) مثلا - فكل من هذه الأعمال يخدم أهدافا سياسية بصورة غير مباشرة»(٦)..

وحتى الأعمال الأدبية التي لا ترتبط بصورة واضحة بسلطة نظام عقائدي خارجي، لا تخلو من دلائل عقائدية (أيديولوجية)؛ بمعنى أن هذه الأعمال تطرح تصوراً لطبيعة الإنسان وهذا يدخل في نطاق الأيديولوجيا، فالأيديولوجيا تتضمن أيضاً «رؤية للطبيعة والقيم الإنسانية»(٧)، ومن الممكن التدليل علي تلك النوعية بأعمال شاعر مثل شكسبير، في تصوير عشرات من النماذج البشرية..

وإلى جانب ذلك، فقد توثقت عرى العلاقة بين الأدب والأيديولوجيا أكثر فأكثر في هذا العصر، وذلك لأن الصراع الأيديولوجي يميز هذا العصر ربما بشكل لم يكن له مثيل في الحدة واليقظة في وقت من أوقات التاريخ، والأدب - دائماً - تعبير عن واقع الحياة،

ورأينا أيضاً أغلب المدارس النقدية التي تقوم بتفسير الأعمال الأدبية وتقييمها قد قامت على أسس أيديولوجية، حيث يدخل الناقد على النص الأدبي متسلحا بوعي ومقاييس أيديولوجية، ويقوم بدراسة العمل الإبداعي انطلاقاً من تلك المقاييس والمفاهيم الأيديولوجية فقط؛ وذلك مثل الاتجاهات النقدية الماركسية، والوجودية، والتحليلية النفسية، والفينومينولوجية.. وغيرها. وقد أدى تغافل هذه الاتجاهات النقدية الأيديولوجية أحياناً لعناصر ومكونات العمل الإبداعي الأخرى، ومغالاتها في التأكيد على المنطوق الأيديولوجي له فقط، أدى إلى الإساءة بالأدب في مختلف الوجوه، بل أضر به أيما ضرر.

ولا عجب أن نرى - كرد فعل لذلك - رواد مدرسة نقدية مثل (البنائية) تقوقعوا حول النص ولغته وفنياته مزدرين كل ماله صلة بالأيديولوجيا بل جعلوا «الأيديولوجيا مرادفة للوعي الزائف، وكل من ينطلق من وجهة نظر تزكى أسبقية المعني على اللغة، أصبح في تصنيفهم رجعياً إلى ابقاء فكر متجاوز عتيق»(٨).

على أية حال، فإن العلاقة بين الأدب والأيديولوجيا راسخة ثابتة ومن يحاول نفيها أو تجاهلها - حينئذ - لا يكون منطقيا في محاولته، فالأدب والأيديولوجيا متزاوجان تزاوج الروح والجسد، بل إن أحد الدارسين يطلق مقولة «الأدب أيديولوجي» على أنها بديهة من البديهات(٩).. ولكى يتحقق ذلك

التزاوج والالتحام بشكل سوى لا يكون على حساب أي من الطرفين، فلا يتغرب الأدب والإبداع عن منطوقه الأيديولوجي، أو يتحول الأدب إلى نوع من الخطابة أو الوعظ أو التقرير، لابد أن نضع نصب أعيننا أن التزام الأدب واجب، ولكن التزامه لا يخرجه عن طبيعة المتميزة وهي أنه «فن» وليس بحثاً أو فلسفة تجريدية، وأن عليه أن يعيش مشكلات عصره، ولكن يعيشها بطريقته الخاصة، فليس من الضروري أن يفهم الناس العمل الفني ويقروه منذ البداية، فليست وظيفة الفن أن يدخل الأبواب المفتوحة، بل أن يفتح الأبواب المغلقة»(١٠).

ولذا، وجب تجاوز النظرة السطحية التي تتوهم تنافراً أو تضادا بين الأدب والأيديولوجيا، تلك النظرة التي تنطلق من المفهوم السائد والخاطيء لدي بعضهم حين يقولون: إن الفن حرية، والأيديولوجيا التزام، والعلاقة بين الحرية والالتزام - حسبما يرون - علاقة بين قطبين متنافرين . وهذا المفهوم - كما هو واضح، وكما سبق القول في صدر المقال - وقع في خطأ التجزئة، وخرج عن صميم التجربة الحية، والممارسة التاريخية، ونسى أن روائع الفن ارتبطت بما تحمله من مضمون فكري رائد، أو عقيدة مؤثرة، وشاركت بإيجابية في تطوير نمط الحياة والسلوك، وساهمت في إثراء الحضارة الإنسانية بمظاهرها المتعددة.

ولذا أيضاً، وجدنا الأيديولوجيات والفلسفات الكبيرة كلها أفرزت آداباً سميت بأسمائها، فساحة الآداب الحديثة تردد فيها اسماء: الأدب الوجودي.. الأدب الاشتراكي أو الماركسي أو الواقعي الاشتراكي.. الأدب العبثي.. أدب اللا معقول.. الأدب التبشيري أو التنصيري أو المسيحي.. الأدب الصهيوني.. الخ..

وعلي ساحتنا العربية الإسلامية، وخاصة في المرحلة التي نعيشها، مرحلة العودة إلى الذات، وعودة الثقة إلى النفس، بعد انتهاء مرحلة الانبهار الحضاري، قامت الدعوة إلى «مذهب أدبي ونقدي إسلاميين» ينطلقان من الرؤية الإسلامية، باعتبارها نظام حياة، ومنهجاً كاملاً وشاملاً يعالج كل جنبات حياة الإنسان: الروحية والمادية، والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية.. وغيرها.

وقد وجد أصحاب الدعوة إلى أدب ونقد إسلاميين في واقعنا الأدبي العربي مايبرر دعوتهم تلك؛ لأن الأدباء والمفكرين العرب في انفتاحهم على الحياة الأدبية والثقافية في أوروبا، لم يقفوا عند حد الاستفادة من تطور الأساليب والأدوات الفنية في المذاهب الغربية، بل تأثروا ونقلوا ماوراء هذه الوسائل والأدوات من خلفيات فلسفية وفكرية، لا تتناسب وقيم وتقاليد مجتمعاتنا العربية الإسلامية.

فالتيارات الأدبية المعاصرة في أوروبا تعبر عن إنسان العصر الحديث بقيمه الجديدة التي صنعتها مادية القرن العشرين، وما نتج عن هذه القيم من خواء وفراغ روحي وظمأ لم تستطع أن ترويه، عشرات النظريات والمخترعات التكنولوجية المتطورة، ونتج عن ذلك أن اتسمت تلك التيارات الأدبية كلها بسمات عامة أهمها: التحلل والانفلات من القيم الروحية.. والسخرية والاستهزاء من ينابيعها المعطاءة كالشرف والفضيلة والطهر والعفاف.. والتشاؤم، حيث النظرة إلى الحياة والناس سوداء عدوانية، لا تنبض بأمل، ولاتشرق بحب.. والهروب من الماضي بكل ما فيه من قيم، ومن الحاضر الذي يملؤه الأسى والخوف، حيث تهدر الألسنة والأقلام باللعنات، حتى لكأن الصراخ والهذيان وصب اللعنات هو الحل، وهو الهدف، وحيث لا تفكير في عمل جدى متزن لإصلاح مافسد.. وغير ذلك من سمات تعكس واقعاً أليماً للحضارة الغربية التي فتنتها القوة فاندفعت في رعونة وأنانية، دون وازع من خلق أو ضمير أو دين..

وهذه السمات نفسها رأينا بعض أدبائنا يروجونها في أعمالهم وينساقون وراءها دون ترو أو تمعن، فوجدنا منهم من يولع باللامعقول واللانتماء والسخط والرفض..

وهكذا أفرز واقعنا الأدبي هذا أدبا زائفاً لا يعكس شخصيتنا العربية الإسلامية المتميزة بماضيها وحاضرها وتطلعاتها، وبتراثها وعقائدها وتصوراتها عن الإنسان والكون والحياة.. ومن هنا نشأت أزمة أدبنا المعاصر، والتي لخصها أحد الأدباء المعاصرين(١١) في النقاط التالية:

أ - عدم وجود مفهوم أو تعريف معاصر مناسب للأدب..

ب - عدم الاتفاق على النبع العقائدي لهذا الأدب.

جـ ـ الاتجاهات الأدبية الغالبة تتناقض وتتصادم..

د ـ الأدب في نظر بعضهم غاية في حد ذاته (الفن للفن)..

هـ ـ الأدب في هدف بعضهم الآخر وسيلة رخيصة لخدمة أهداف ونظم وفلسفات..

و ـ واعتداءات متعمدة على قداسة التراث واللغة العربية والقيم والمباديء الدينية..

ز ـ فهم خاطيء للمصطلحات والمفاهيم مثل: الواقعية والإنسانية والعبثية وغيرها..

حـ ـ تقليد أعمى لنماذج الآداب المستوردة، وتبني الصيغ والأعراف والعادات والتقاليد الدخيلة..

ط ـ استعادة الرموز الدينية والسياسية والفنية والاندماج فيها دون تبصر أو وعي..

ي ـ طمس معالم الشخصية «الإسلامية» المتميزة، أؤ الا نموذج الصحيح..

ك ـ تفسير السلوك والأحداث والعلاقات بمنأى عن القدرة الإلهية والدوافع السلوكية الإنسانية الصحيحة، والعوامل المؤثرة الأخرى وفرض تفسيرات متعسفة (نفسية أو اجتماعية أو اقتصادية) لحركة الإنسان في الحياة..

ل ـ فهم خاطيء لأهمية قواعد وأصول الأشكال الفنية للأنواع الأدبية..

م ـ التكاسل عن القيام بتشخيص سليم لأدواء الأدب والبحث عن العلاج المناسب..

ن ـ ندرة محاولات التقييم لآدابنا..

ع ـ الفشل في وضع سياسة حكيمة «للترجمة» من وإلى اللغة العربية..

ف ـ عدم بذل الاهتمام الكافي بنشر اللغة العربية وخاصة في دول العالم الإسلامي الناطقة بلغات أخرى..

ط ـ عدم التصرف بوضوح مع اللهجات العامية في العالم العربي

ق ـ وهن العلاقة بين أدباء العالم الإسلامي، والتأخر عن نشوء حركة تجميع عالمية، تتبنى الأمر، وتوليه حقه من الاهتمام والرعاية والمتابعة.

ص ـ تراخي الجامعات والصحافة والمؤسسات الثقافية في العالم العربي والإسلامي عن قيامها بالواجب المنوط بها إزاء مفاهيم الأدب، والأدباء، والنظر من جديد إلى تاريخ الأدب العربي والاتجاهات النقدية فيه وإهمال الدراسات المقارنة إلي حد كبير..

هذه النقاط ربما تبلور الأبعاد الحقيقية لأزمة واقعنا الأدبي المعاصر الذي تعاني منه أجيالنا، وتحدد مواقع الخلل في مسيرتنا، وتشير إجمالا إلى المنطلقات الرئيسة التي يجب أن نبدأ منها.

وانطلاقا من هذا الواقع الذي يسود ساحتنا الأدبية والنقدية تساءل الداعون للأدب الإسلامي: لماذا لا يكون أدبنا مرتبطا بتراثنا نحن، وواقعنا نحن، ومعبرا عن آمالنا وآلامنا، ونابضا بقيم الروحية الخالدة التي تضم أشرف وأغلى مايرقي بالإنسان ـ أي إنسان ـ وتحقق التوازن والتساوق والمنطقية؟.. ولماذا لا تكون مقاييسنا ومعاييرنا النقدية منطلقة من طبيعة هذا الأدب، ومستلهمة من ذاتيته، ومسايرة لروحه؟..

■■ الهوامش:

(١) يترجم بعض الباحثين مصطلح «الأيديولوجيا» IDEOLOGG بلفظ: «المذهبية» (منهم: د. زكي نجيب محمود «مجلة فصول، المجلد الخامس ـ العدد الرابع، ١٩٨٥ م، ص ٢٧»، ود. كمال أبو ديب «نفس المرجع، ص ٦٢»، ود. محسن عبدالحميد «المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري، سلسلة كتاب الأمة، العدد ٦»، وهناك من يترجمه بلفظ، أو يترجمه حرفياً: «علم الأفكار»..

(٢) د. عز الدين إسماعيل: أيديولوجيا اللغة، مجلة فصول، المجلد الخامس ـ العدد الرابع، ١٩٨٥م، ص ٣٧.

(٣) نفس المرجع، ص ٣٨.

(٤) د. كمال أبو ديب: الأدب والأيديولوجيا، مجلة فصول، المجلد الخامس ـ العدد الرابع، ١٩٨٥م، ص ٥٤.

(٥) د. عبدالله العروى: مفهوم الأيديولوجيا (الأدلوجة)، المركز الثقافي، الدار البيضاء، ١٩٨٠م، ص٥.

(٦) كريستوفر بطر: التفسير والتفكيك والأيديولوجيا، ترجمة د. نهاد صليحة، مجلة فصول، المجلد الخامس ـ العدد الثالث، ١٩٨٥م، ص ٨٣،

(٧) د. عبدالله العروى: مرجع سابق، ص ٩.

(٨) د. مسلك ميمون: الأدب والنقد وإشكالية (الأدلوجة)، مجلة فصول، المجلد الخامس ـ العدد الرابع، ١٩٨٥، ص ١٠٩.

(٩) هو «د. كمال أبو ديب» في بحثه: الأدب والأيديولوجيا، مرجع سابق.

(١٠) أرنست فيشر: ضرورة الفن، ترجمة أسعد حليم، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧١م، ص ٢٧٦.

(١١) هو رائد الأدب الإسلامي الراحل الدكتور نجيب الكيلاني: مجلة «الأمة» القطرية، العدد (٢٧)، ص ٢٠، وكذلك دراسته: مدخل إلى الأدب الإسلامي، سلسلة «كتاب الأمة» العدد «١٤»..

□□□